الطيب سيد أحمد الشنهوري
باحث دراسات إسلامية

منهج النبي ﷺ في التربية

لم يعهد التاريخ: ماضيه وحاضره، دينا علم الدنيا الرفق وغرس اللين والتيسير على الناس في نفوس أتباعه كما فعل الإسلام، ولم ير مرب أرسى أسس التربية بالرفق واللين كمحمد ﷺ، كيف لا وقد علمه ربه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيما؟!

فاستقى الرفق في التربية عن وحي السماء، وصبغه بصبغة أخلاقه السمحة، وربى الرعيل الأول من أصحابه بأفعاله قبل أقواله.

مما لا يشك فيه عاقل أن للتربية العملية أثرا أعمق في النفس وأكثر نفعا من القول، فما يراه المتعلم في خلق معلمه ينطبع في ذهنه وقلبه؛ فيتطبع عليه من دون تكلف، قيل للشيخ الشعراوي، رحمه الله، يوما: وجه نصيحة إلى الدعاة إلى الله، فقال كلمة أوجز بها وأنجز، كلمة تختصر المنهج كله، قال: «إياك أن يراك المدعو على غير ما تدعوه إليه».

يا أيها الرجل المعلم غيره
هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى
كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا
أبدا وأنت من الرشاد عديم
ابدا بنفسك فانهها عن غيها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويشتفى
بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم

وقد تحققت القدوة العملية في أسمى معانيها في أخلاق محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٢١).

فكان الرفق في خلقه منهجا يقتدى به في كل أمر قال ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»[1].

كما أوضح ﷺ أن رسالته الخاتمة رسالة رفق وتيسير فقال: «إن الله لم يبعثني معنتا، ولا متعنتا، ولكن بعثني معلما ميسرا»[2].

وهاك مشهد يتجلى فيه رفق النبي ﷺ بالمتعلم رغم أن الخطأ صدر عنه في ركن من أركان الإسلام ركين معلومة تفصيلاته لكل مسلم بالضرورة، وهو الصلاة، فقد تحدث معاوية بن الحكم السلمي في صلاته بكلام خارج عن معنى الصلاة وكرر حديثه.

ونترك صاحب الموقف يروي لنا ما كان منه:

عن معاوية بن الحكم السلمي: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ، إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه، ما شأنكم؟ تنظرون إلي، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله ما كهرني[3] ولا ضربني ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»[4].

قال الإمام النووي معلقا: «فيه ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق الذي شهد الله تعالى له به، ورفقه بالجاهل، ورأفته وشفقته عليه، وفيه التخلق بخلقه ﷺ في الرفق بالجاهل، وحسن تعليمه، واللطف به، وتقريب الصواب إلى فهمه».

بل وكان ﷺ رفيقا مع من فعل في المسجد ما هو أكبر من ذلك، فعن أنس بن مالك: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزرموه[5] دعوه». فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة وقراءة القرآن (أو كما قال رسول الله ﷺ)»، قال: فأمر رجلا من القوم فجاء بدلو من ماء فشنه عليه[6].

ولعل من أبلغ ما كان من رفقه صلوات الله وسلامه عليه أن أتاه رجل فقال: يا رسول الله هلكت.

قال: «وما أهلكك؟».

قال: وقعت على امرأتي في رمضان.

قال: «هل تستطيع أن تعتق رقبة؟».

قال: لا.

قال: «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟».

قال: لا.

قال: «فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكينا؟».

قال: لا.

قال: «اجلس».

فأتي النبي ﷺ بعرق فيه تمر (والعرق المكتل الضخم)، وقال: «فتصدق به».

فقال: ما بين لابتيها أحد أفقر منا.

فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه.

قال: «خذه فأطعمه أهلك»[7].

فهذا الرجل لما جاء معترفا بخطئه، نادما على سوء فعله، باحثا عن المخرج الشرعي لما وقع فيه من خطأ وزلل؛ يسر عليه النبي ﷺ ورفق به ولم يتعنت معه، فأخبره أن عليه كفارة، بدأ فيها بعتق رقبة، ثم صيام شهرين متتابعين، ثم إطعام ستين مسكينا، فلما لم يجد عند الرجل قدرة على شيء من ذلك، أعطاه ما يتصدق به؛ بل إنه سمح له بأخذ هذه الصدقة، وأن يطعمها هو وأهله لما رأى ما عليه الرجل من فاقة وشدة وحاجة[8].

وهكذا يتجلى لنا في أنوار رفقه ﷺ بره بأصحابه ورحمته إياهم.

قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب:٦).

وقال ﷺ: «إنما أنا لكم مثل الوالد أعلمكم»[9].

فجدير بكل مرب ومعلم أن يتعلم من خير المعلمين ﷺ، فيتخذ الرفق منهجا؛ فإنه أثمر وأقوم.

الهوامش

١- صحيح ابن ماجه، ٢٩٩٠.

٢- صحيح مسلم، ١٤٧٨.

٣- قهرني ونهرني.

٤- رواه مسلم، ٥٣٧.

٥- لا تجعلوه يتضرر بقطع بوله.

٦- صحيح مسلم، ٢٨٥.

٧- صحيح البخاري، ٢٦٠٠.

٨- المعلم الأول، إعداد القسم العلمي بدار الوطن، ص:١٠.

٩- صحيح النسائي، ٤٠.